المشرق

شاهد القيامة في دياميس رومية

رواية خياليَّة لاميل گبهارت من الاكاديمية الفرنساويَّة (*

نحن في مساء بعض أيَّام نيسان وموقفنا في ارباض مدينة رومية. فالطبيعة قد لبست ابهى اوشحتها ولاحت باسمى مجاليها في اصيل النهار. وان ممدت البحر بعيدًا الى جهة الافق قامت في وجهك على شبه نصف دائرة رحبة جبال بلاد سابينا كأنَّها قلادة من الدراريّ العجيبة تشعّ تحت الاسهم الارجوانيَّة الذهبيَّة التي ترميها الشمس في ساعة غروبها

والطريق الممتدَّة امامنا تُعزى الى القنصل اپيوس على جانبيها مدافن قديمة لاعيان الرومان تظلّلها اغصان الأشجار وتزينها بحليّ انوارها الزاهية الالوان. وفي هذه الساعة تتلاعب الريح البحريَّة في تلك الافنان فتُسقط ما بقي فوق رؤوسها من بقايا الثلج الشتويّ فينتثر الثلج ممتزجاً بعرف الزهور فوق ضفائح القبور وعلى هام اولئك القوم الاجلاء المضجعين هناك الراقدين في مدافنهم رقادًا ابديًا

ثم اخذت الطيور تأوي شيئاً فشيئاً الى اعشاشها في اكناف الوسج او في اعالي السرو فتكفّ عن زقزقتها وصفيرها. بينما كانت اسراب الخطاطيف القادمة من جهة نابولي تمرّ في لازورد السماء مرَّ السهام فتحلّق فوق مباني القبر القديمة. اما ابنية

(*) اهدانا الطبَّاع باود نسخة من مجموع كتابات الكاتب الشهير اميل گبهارت التي ترى وصفها في اواخر هذا العدد فاقتطفنا منها هذا الفصل بنسبة عيد الفصح المجيد وعرَّبناه ببعض تصرُّف

رومية من ابراج وقبب واسوار فكأنها تردّت بستر من الغمام المنير فتلوح الارض مزدانةً بشعار سلام مقدّس يُفرغهُ عليها السماء من كرمهِ

ففي تلك الساعة كان فارسان يسيران بتؤدة الى رومية في سكّة آپيوس وكان احدهما ذا هيئة رزينة ووجه كاسف قد طعن في سنهِ فمن تفرّس فيهِ استدلّ من زيّهِ وسحنتهِ انهُ بطريق ذو حسب ونسب وانهُ ليس ضابطاً بسيطاً بل احد ولاة رومية او سفيراً من قبل القيصر . اما الآخر فكان في مقتبل الشباب تدلّ حركاتهُ على مهنتهِ العسكريّة فكان يمشي في رفقة عامل الدولة بوقار وانبساط الخاطر كأنهُ يحنّ لهُ لما يبدو على جبهتهِ وبين حاجبيهِ من تجعّد الاسرّة وفي بصرهِ من الذبول وحول شفتيهِ من شارة الأَنفة فكل ذلك يشهد على ما يكنهُ صدر الرجل الوجيه من الكآبة ولعلَّ مهماز الضمير او ذكر فقيد محبوب كان يتأثرهُ فلم يبرح من فكرهِ بعد الزمن الطويل

وكان يتبع الفارسين كوكبة من العبيد يسيرون من ورائهما على مسافة قريبة منهما

فهم لكذلك اذ ظهر لهم باب المدينة المعروف بباب كابينا المفتوح في اسوار رومية فهتف الشابّ :

« ترى يا حضرة العم هؤلاء القوم الذين يتجوّلون هنا بين الحقول وكأنهم يسيرون زوافاتٍ ووحداناً الى جهة منفذ مفتوح في بطن الارض عن شمالنا ؟ ما قولك ؟ افليس هؤلاء من المتآمرين على حياة قيصرنا نيرون كما هو الجاري في أيام الظلم ؟ »

فافتهر البطريق الشابَّ بقولهِ : « صهْ يا طانش فانَّ كلاماً كهذا اذا سمعهُ العبيد رفقتنا او واحدٌ وراء هذه القبور لأمكنهُ ان يرمينا في التهالك . فحذارِ »

*

على انَّ الفارس الشيخ بقي شاخصاً الى اشباح المتجوّلين هناك في شفق النهار . واذا بهِ شعر بقشعريرة في جسمهِ لاح اثرها على وجههِ فصرخ الى ابن اخيهِ :

« هيَّا بنا نحن ايضاً فلنسر الى هذا المدخل السري »

قال هذا ثم توجّه الى المنفذ وتبعهُ رفقتهُ فاذا هم بازاء دهليز ضيّق كان مخدوداً في قعر الارض فتوجّل الشيخ والتفت الى ابن اخيهِ قائلاً :

« انتظرني يا سكستوس مع عبيدي هاهنا ومهما طال زمن انتظارك فأياك ان تخطو خطوةً الى الداخل »

ثم تقدَّم الى الامام جارياً في معيَّة اولئك الاشباح الذين رآهم يلجون في الدهاليز. وبعد قليل سمع دمدمة قوم متجمعين ثم ميَّز اصوات رجال تارةً يتغنَّون بالادعية وتارةً يتنفَّسون الصعداء او يلهجون بعبارات الفرح . ثم كانت اصواتهم تهدأ فيسكتون ويخطب فيهم خطيب يرنّ صوتهُ في اعماق تلك الاغوار

فما مشى خطوات حتى تراءت لهُ انوار حمراء كان ينعكس ضوءُها في جدران الدهاليز فاشتمّ رائحة اغصان وزهور قُطعت حديثاً فمُلئت تحت الصخور المقبَّبة . واذا بالطريق بلغ ناديا رحباً قد أُسرجت فيهِ المئون من أسرجة الخزف الصغيرة ووجد الحضيض مفروشاً بزهر السوسن والياسمين

فدخل ولم يقرزهُ احد في دخولهِ بين الجماعة الّا الرجل المتقدّم فيهم . وكان هذا جالساً على مصطبة مرتفعة ويظهر من لاتحتهِ انهُ معلّم ذلك الجمهور وكاهنهُ وابوهُ . ألا وهو بطرس الصفا هامة الرسل ورئيس الكنيسة

فاذ رأى الوافدَ الشريف امتُقع لونهُ فأغمض عينيهِ كأنهُ يدعو في قلبهِ تذكاراً مؤلماً . ثم التفت الى الزائر غير المنتظر واشار اليهِ بهيبة ان يجلس في وسط قوم من العامة . فقعد البطريق بين احد نوتيَّة نهر التيبر وحدَّاد من جبل اسكويلين

وكانت الرتبة الدينية في تواصل يُصغي اليها اولئك الحضور بينهم ضعفاء الناس وفئة من الجند يجالسون بعضاً من سيدات رومية الشريفات والعبيد الاذلاء وقوماً من غرباء غالبا ومهاجري سورية . وكان شمّاس قائماً وهو يقرأ الانجيل آلام السيد المسيح مع ما يليهِ من خبر قيامتهِ المجيدة فجدد على مسامع الوافدين ذكر تلك الحوادث الجليلة التي جرت في اورشليم قبل بضع سنوات . وكان متولي تلك الحفلة في ذلك المساء بطرس الرسول في اعماق ديامبس حاضرة المدن والجميع ينصتون الى ما يقرأهُ الشمّاس من رواية ضبط السيد المسيح في بستان الزيتون ثم خيانة يوداس ثم تطواف يسوع في كل احياء اورشليم ومثوله امام حانان وفي دار قيافا حتى وصل الى خبر جحود بطرس لسيدهِ ثلاثاً فهيَّج ذكر تلك الفاجعة في قلب الرسول عواطف الاتضاع والخشوع فكان يذرف امام المؤمنين اسخن الدموع ويقرع صدرهُ ندامةً

*

ثم انتقل القارئ الى ذكر دار الولاية الرومانيَّة في القدس الشريف وما خامر قلب بيلاطس من الضعف والفشل وكيف تردَّد في حكمهِ الى ان قُهر بجلبة اليهود الصارخين: اِرفعهُ! اصلبهُ! ثم ما ولي ذلك من عذاب الجَلْد وتكليل هامة الرب بالشوك المؤلم مع وضع القصبة في يديهِ كصولجان وإلباسهِ أسمالًا من الارجوان سخريةً بهِ وشراسة بني اسرائيل وإصرارهم على طلب قتل المسيح شفاء لبغضهم

ثم اندفع الشمَّاس في قراءتهِ قائلًا: اسمعوا رواية ما عاينهُ احد رسل الرب يوحنا الحبيب واثبتهُ الانجيليُّون في كتابهم قال: «وكانوا يخبِّرونهُ باسم ملك اليهود متهكمين فيلطمونهُ على وجههِ. وخرج بيلاطس ثانيةً وقال لليهود: ها انا اخرجهُ اليكم لتعلموا اني لا اجدُ فيهِ اثمًا. فخرج يسوع وعليهِ اكليل الشوك وثوب الارجوان فقال لهم بيلاطس: هوذا الرجل»

فلمَّا بلغ الشمَّاس الى هذا المكان من خبر الآلام غطَّى البطريق الروماني وجههُ بطرف ثوبهِ ثم نكَّس رأسهُ حتى كاد يمسّ ركبتيهِ. وبقي كذلك مدَّة وهو جامد لا يبدي حراكًا حتى اذا انتهى الشمَّاس من رواية الآلام فبلغ الى ذكر خبر القيامة سُمع صوتٌ عظيمٌ في اعماق الدياميس كان كهزيم الرعد او بالحري كابواق ملائكة يوم الدين فصرخوا جميعًا: هللويا! فرفع البطريق رأسهُ كأنهُ انتبه من سُبات عميق

فحينئذٍ اشار بطرس الصفا الى رجل من السامعين أن: قُمْ وأدِّ بشهادتك

فقام كهلٌ في وسط الجموع ثم جاء فانتصب من عن يمين اول اساقفة رومية واذا هو كلاوديا احد التلميذين اللذين تراءى لهما الرب في عمواس فروى شهادتهُ الحيَّة المنطبعة في صميم قلبهِ فذكر كيف رافقهما الربُّ في طريق فلسطين في مساء كساتهم الحاضر وسألهما: «ما بالكما كئيبين» فصرَّحا لهُ عن علَّة حزنهما بسبب موت يسوع النبي العظيم الذي اسلمهُ الكهنة الى الموت وامر والي الرومان بصلبهِ. وكيف اردفا قائلين: «كنَّا مع ذلك نؤمل انهُ يفدي اسرائيل وها هوذا قد قُتل منذ ثلثة ايام فتُتات معهُ كل آمالنا. على انَّ بعض النسوة قد ادهشننا لانهن بكَّرن الى القبر فلم يجدن جسدهُ فأتين وقلن انهنَّ رأين مظهر ملائكة قالوا انهُ قام حيًا»

(قال) «وبقي معنا رفيقنا في الطريق يشرح لنا الكتب من موسى والانبياء

ولما بلغنا الى عواص حيث كنا عوّلنا على المبيت تظاهر كأنهُ يريد ان يسير الى مكان ابعد لكنهُ رضي بان يبيت ويأكل العشاء. معنا واذا بهِ اخذ خبزًا وباركهُ وكسرهُ وناولنا فعرفنا انهُ مخلصنا الحبيب واذ خرونا لنسجد لهُ توارى عن عياننا »

*

ففي اثر هذه الرواية صدع الكل بصوت الفرح ثانيةً وكرّروا « هللويا » الفصحيّة في انحاء الديامبس. ثم قام الرسول وقال للجمع :

« فلنصلّين ايها الاخوة »

قال الجمع : آمين

ثم اردف الرسول : فلنصلّين لاجل اليهود العميان الذين لم يعرفوا المسيح إلههم. فلنصلّين لاجل اجدادنا تبعة العهد العتيق عهد ابراهيم وموسى وداود . فلنصلّين لاجل الامم ليقبلوا الى نور الخلاص. فلنصلّين لاجل القيصر الروماني ولاجل اورشليم بل لاجل كل ذرّية آدم. صلّوا ايضاً ايها الاخوة كي يمنحني الرب الاله مغفرة خطيئتي. فليصلّ بعضكم لاجل البعض ليعطيكم الله قوّةً في الايمان وثباتاً بين الاضطهادات وبسالةً بازاء الموت والاستشهاد .

وكان الحضور يؤمّنون لكل قول من اقوال رسولهم حتى قال بصوت جهور مشيرًا الى البطريق الشريف ذي الملابس الفاخرة الجالس هناك :

« صلّوا ايضاً لاجل هذا الرجل »

فحدّق تلميذ عواص الى وجه الغريب فعرفهُ وقال متلجلجاً : هو بيلاطس نفسه فما سمع النصارى ذاك الاسم حتى أغشي على بعض السيدات وترامى الصغار في حجور أمهاتهم وبقي الكل في حيرة واضطراب

فقام حينئذٍ بيلاطس واقترب من بطرس الصفا وبينما كان السكوت سائداً على الجمع اثبت لهم انهُ لم يقضِ على يسوع الناصري الّا على رغم منهُ اذ عرف براءتهُ وقداستهُ لكنّ الشعب ورؤساء اليهود اضطرّوهُ على دفع البارّ الى ايديهم لئلّا يحدث شغب ضدّ رومية وقيصر . ثم اقرّ امامهم انهُ لم يذق منذ حكم على يسوع ساعةً من الراحة وان ذكرى ضعفهِ كانت تتعقّبهُ حيثما سار كما كان يردّد في فكرهِ شهامة يسوع في اجوبتهِ في دارهِ اذ اعلن بكونهِ ملكاً وان لا سلطة لاحد عليهِ ان

لم يُعدّها من فوق. وذلك ما حملهُ على ان يثبت على صليبهِ عنوانهُ « يسوع الناصري ملك اليهود » فلم يرضَ بتغييرهِ بل كان لا يزال يذكر بالعجب والانذهال تواري الميت من قبرهِ المختوم بسجل الرومان واقرار الحرس بان اليهود رشوهم ليقولوا انَّ تلاميذهُ اتوا فاخذوا جثتهُ وهم نيام. (قال) فرجائي ان يقبل تلاميذهُ عذري...

فقاطع بطرسُ بيلاطسَ وقال لهُ: لسنا هنا مجتمعين لتلعنك اذ قد سبقنا وصلينا لاجلك ولاجل كل من اشترك في القضاء على رب السماء. ويا ليت دمهُ ينزل على قلبك ليطهّرهُ ويشفي اوجاعهُ. وها نحن نتمم هنا سرّ الرحمة والمحبة طالبين من الله ان يُنير ذهنك ويرشدك الى طريق الخلاص

قال هذا ثم تقرّب من الاسقف شابّان في ايديهما سلة خبز فطير فتناول الرسول الخبزات وباركها وكسرها وفرّقها على المؤمنين فسمع ثالثةً صوت التهليل وجعل الحضور يتأهبون للخروج فرأوا بقرب بيلاطس دون بغض واثنين لهُ وشاكرين الله الذي ارسل اليهم في ذلك العيد العظيم شاهداً جديداً على موت الفادي وقيامتهِ

ثمَّ خرج البطريق في آخرهم بكل هدوء وهو غارق في لجة الافكار تكتنفهُ متعطّر بروائح الزهور والبخور. فلمّا وصل الى حيث كان ينتظرهُ سكستوس وعبيدهُ امتطى جوادهُ ودخل رومية ساكتاً راجماً دون ان يجيب كلمةً على اسئلة اصحابهِ وكأنَّ حزنهُ كان قد ازداد ورأسهُ قد تثاقل فانحنى على صدرهِ مفكراً في اثمهِ لاعنا اولئك الذين اجأوهُ الى تضحية ذمّتهِ متوقعاً للعقاب الآجل الذي طلبهُ بنو اسرائيل على ذريتهم في حكمتهِ صارخين: ليكن دمهُ علينا وعلى اولادنا...

(راجع في المشرق ١ : ٣٦٩ مقالتنا عن بيلاطس وما ورد عنهُ في التاريخ)

الخلاصة الماسونيّة

خطاب القاه الاب لويس شيخو اليسوعي في نادي كليّة القديس يوسف وكانت تتخلّلهُ التصاوير بالانوار الكهربائيّة

قدّم الخطيب على كلامهِ قولهُ بانَّ الغاية من خطابهِ ليست الطعن في احد او الانتقاص من قدر احد اذ يتحاشى كلّ الشخصيات مع علمهِ بانَّ اكثر الداخلين في الماسونيّة لا يعرفون من